افتتاح موسم المحاضرات

في المجمع العلمي العربي

لعام ١٩٤١ — ١٩٤٢

اعتاد المجمع العلمي العربي أن يتخذ أصيل يوم من أيام كل اسبوع محاضرة علمية يدعو اليها أهل الفضل والادب ويبتدئ موسم هذه المحاضرات في شهر تشرين الثاني وينتهي في شهر حزيران من كل عام . وقد كان موعد افتتاح محاضرات هذه السنة يوم الجمعة في ٧ تشرين الثاني . وتفضل فخامة رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسني بأن يرعى بعنايته السامية هذه الحركة العلمية . فترأس هذه الحفلة بشخصه الكريم يحف به دولة رئيس الوزراء المعظم السيد حسن بك الحكيم . ومعالي وزير المعارف السيد فيضي بك الأتاسي . ومعالي وزير العدلية السيد زكي بك الخطيب .

واستقبل رئيس المجمع العلمي فخامة رئيس الجمهورية وهيئة الحكومة بالكلمة الآتية :

يا صاحب الفخامة

يسر المجمع العلمي العربي أن يستقبل دورة محاضراته تحت رعاية فخامتكم وقد نالت سورية استقلالها المنشود ، وكله آمال ان يكون العهد الجديد خيراً كله للبلاد .

واذا احتفى المجمع العلمي بفخامتكم فانما يحتفي برجل كان يسارع الى حضور محاضراته منذ أول تأسيسه ويشارك أعضاءه في رغائبهم ويعطف عليهم وعلى عملهم فأنتم اذاً من أعرف الرجال بالمجمع وبما يصلحه .

ولقد شهدتكم ، شهد الله ، وانا اعمل معكم في وزارتكم الاولى أربع سنين كيف كان وجهكم يطفح سروراً كلما قام في الدولة مصنع جديد ، وما أنس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا أنس ما فهتم به مرات لما قامت مدرسة تجهيز دمشق ودار حكومة حلب وجسر الفرات الذي ربط الشام بالجزيرة ، وما كان يبدو من عنايتكم عند البداءة بانشاء تلك المدارس ودور الحكومة والطرق المعبدة وسائر المرافق .

فهل لكم اليوم ، وبيدكم أقدار هذه الديار ، ان تقلدوا تلك الاعمال الجيدة قلادة جديدة يخلدها لكم التاريخ في صفحاته الأزلية ، واعني بذلك انفاذ مشروع قديم للمجمع كان يجهر بفائدته بل بضرورته منذ أسس عام ١٩١٩ وأقل ما يعظم به النفع منه دفع خطر الحريق عن مجموعاته وكتبه وتهيئة أماكن صالحة صحية للدارسين والباحثين في غرفه وأبهائه ، وذلك باظهار المدرستين العادلية والظاهرية بمظهر يليق بمدينة كمدينة دمشق . والظاهرية والعادلية بقية زهاء ثلثمائة مدرسة دارسة كانت مفخرة من مفاخرنا .

اذا صدر أمركم العالي واستملكت العقارات المحيطة بمدخل المجمع منذ باب البريد فجرى توسيع هذا الزقاق الضيق ورفعت هذه البيوت الكئيبة التي أفسدت هواء هاتين المدرستين وشعثت رواءهما وبهاءهما ثم رمم بناؤهما حسب التصميم القديم يكون ذلك مقدمة الى تفريغ ما حوالي الجامع الأموي وانقاذه من خطر الحريق فقد حرق سبع مرات كانت النار تسري اليه من الأسواق المحيطة به على الاكثر

اذا فعلتم يبدو أعظم جامع في الاسلام فتنة للناظرين من داخله وخارجه ، وتأمن الظاهرية من خطر النار كل ساعة لأنها في جوار قمين وفرن ، ان نجت من نار الأول فقد لا تنجو من نار الثاني . ويسلم قراء دار الكتب ومستخدموها من عنت الدخان الذي يضيق الانفاس كل يوم من هذا القمين .

بهذا العمل تسجلون لكم مأثرة جليلة تحرزون بها رضا العلامة الاستاذ والدكم فانه رحمه الله كان كثيراً ما يخشى على مجموعة الحديث التي ضمتها جدران الظاهرية لعلمه بأنها اعظم مجموعة في العالم ويرجو ان تهيئ الأيام من يحييها بالطبع خدمة للاسلام والمسلمين .

هذه أمنية المجمع العظمى عرضتها على نظركم العالي وبتحقيقها تمتدون للعلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والفن الاسلامي منة كبرى وفقكم الله لما فيه سعادة هذه الجمهورية بمنه وبمنه

وبدأ فخامة الرئيس يجيب على هذا الترحاب والرجاء فقال مرتجلاً :

يا معالي الرئيس . !

ألسنا هنا في عرش أمية ، الذي طأطأ العالم رأسه بين يديه ؟

ألسنا في الينبوع المقدس ، الذي تدفقت منه أنهار الحضارة والأخلاق الى انحاء الدنيا الغارقة في الظلمات ، فغمرت عقول الناس بالنور ، وقلوبهم بأنبل الشعور ؟

ألسنا في المجمع الخالد ، الذي لم يطلق عليه اسم « البانتيون » ، ولكنه ضم هنا وهناك بقايا ملوك وزعماء ووزراء وعلماء ، كانوا آيات العبقرية وعناوين الزمان ! .

فاسمح لي يا معالي الرئيس وانا في موقفي هذا وتطوف بي ذكريات تاريخنا المجيد ، ان اقف خاشعاً وان ادعوكم جميعاً الى الوقوف خاشعين ، وان اطلب منكم خلال هذه الدقيقة الملهمة ان تفكروا في شيء واحد : في ماضينا العظيم ، وفي رجالنا الخالدين الذين عظمونا في عيون العالم .

لقد فكرتم بالرجال الذين اعزوا البلاد بعد ذل ، وعلموها بعد جهل ، واستطعتم ان تتصوروا في هذه اللحظة ما كان لنا من مجد وعظمة ، فاذا دعاني معالي الرئيس الى استبقاء هاتين المدرستين ، وتجريدهما من هذا الاطار الفقير الذي غمر رواءهما وبهاءهما ، لنحتفظ بقطعة من تراثنا الضخم ونجد فيهما رائحته فانا اقول له : سنعمل لهذا بالقدر المستطاع ، فكل ما يعني مجد البلاد وتاريخها يعنينا !

ولكنني ادعو اليوم الى عمل اكبر واعم وانفع ، ادعو ابناء البلاد الى ان ينذروا مواهبهم وقواهم متحدين متكاتفين في سبيل تأسيس دولة جديدة ، ننشيء فيها كما كان آباؤنا ينشئون ؛ ونكتب في صفحات التاريخ مثلما كانوا يكتبون ، فنحن لا نريد ان نعيش من الذكرى ، ولكننا نريد ان تعيش الذكرى بنا ، فلا يقال كان لهؤلاء آباء ! وانما يقال : هؤلاء هم الناس وكانت لهم آباء !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أيها السادة :

لقد شاء الله سبحانه وتعالى ان تنعم أمتنا في مرحلة من ادق المراحل التي يجتازها العالم بنعمة السيادة والاستقلال ، وكل واحد منا مسؤول عن هذه النعمة مدعو الى حمايتها ، وويل لمن يريد ان يضيعها .

أما الوسيلة الى توطيد دعائم السيادة والاحتفاظ بمظاهر الاستقلال فهي الاخلاق الحميدة والثقافة الفاضلة ، وانه ليسرني كثيراً ان اعلن الآن افتتاح موسم المحاضرات في المجمع العلمي العربي متمنياً له التوفيق في عمله الثقافي والاخلاقي .

واذا كانت العادة ان تختتم الخطب في الحفلات السياسية بكلمة عاشت سورية مستقلة ذات سيادة !

فأنا أضيف الى هذا الهتاف — وقد رأيتكم تتنادون الى حلقات العلم ومجامع الفضيلة — قائلاً :

عاشت سورية المثقفة المهذبة ! وعاش رجالها العلماء !. اهـ

وقد ظهرت خلال خطاب الرئيس الأول البهجة على وجوه الحاضرين من وعده الكريم بعمل مافي وسعه لتحقيق هذه الآمال ، وما فرغ من خطابه حتى تقدم معالي رئيس المجمع العلمي اليه شاكراً همته وحسن وعده ثم عاد الى منصة الخطابة فألقى المحاضرة الآتية :

ارشاد العامة

لو كان من وكل اليهم هداية العامة يؤمنون حقاً بما يعظون لأثرت اقوالهم التأثير المطلوب ولقلّ معظم ما نراه من شرور . الدين يقوّم المعوج ويطهر النفوس ، ولكن اذا آض الى ايدي من لا يحسنون استعماله يصبح عبارة عن رسوم وشعائر لا تدخل الصميم .

نرى المصلين في الجوامع الى اليوم ليسوا بقليل عددهم ، ولكن هل عملوا كلهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا ترى بما يتلون وما يتلى عليهم ؟ هل هدتهم صلاتهم الى ان الله تعالى حرم عليهم الكذب والسرقة وأمرهم بالصدق والأمانة ؟ ابحثوا في شؤون هؤلاء المستهترين ، هل ترون اكثرهم عمل بقليل مما امره به الدين ام هو مسلم جغرافي ، ومسلم تشهد باسلامه تذكرة النفوس فقط .

ارجو الا اتهم بالمبالغة او باستعمال الاسلوب الخطابي ولا اطلب ممن يتهمني بذلك الا ان ادعوه ليحتك بالسوقة والمرتزقة والتجار والفلاحين فيشهد العجب من أخلاق بعضهم . نرى السارق يسرق بدون نكير والكذاب يكذب ولا يخجل ، وهناك سلسلة من التزوير والتغرير ، ولو أردنا تصفية أبناء كل حرفة من لوثاتهم ما ثبت على محك النقد الا افراد قلائل في كل قرية وفي كل حي ومنزلة .

تدبروا أخلاق اكثر اهل القرى وأخلاق اهل المدن تروا بعض الفلاحين والمدنيين سواء في الفساد وضعف الأخلاق ، لا تكاد تجد الأمين المؤتمن الا نادراً ، وكان الأجداد على عكس ذلك تغلب الفضائل النفسية على السواد الأعظم منهم في الجملة . واكثر من تعتقدون اليوم فيهم الأمانة يسرقونكم متى آنسوا منكم ضعفاً او غفلة ، اما الكذب فلم يسلم منه الا من عصم ربك ، واما الغش فما أظن المانع لبعضهم من الاسترسال فيه الا علمهم بأن اشتهارهم به يؤدي الى قطع ارزاقهم .

أمثل لكم بمثال واحد أثبت به ما أقول ، وهو تحت نظرنا كل ساعة وكل يوم ، انظروا نظر النقاد في البياعات والحاجات هل تجدون أشياء كثيرة سلمت من الغش يغشون في الكيل والوزن وفي القياس والذرع ، واكثر مواد الغذاء مغشوشة فالغش يدخل الخبز واللحم والسمن والزيت والزبد والقشدة والجبن والدبس والعسل واللبن الرائب واللبن الحليب وماء الزهر وماء الورد . واذا أرادت الحكومة ان تسيطر على العامة والمرتزقة قد يشترك من تنصبه لذلك مع الغشاشين فيزيد لص كبير الى اولئك اللصوص الصغار ، وهذا المسيطر قد يكون ممن يحمل شهادة أطول من قامته ولكن نفسيته دنيئة . معظم ما يعمل في السوق وفي خلوة مغشوش :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأدوية مغشوشة في الصيدليات والقهوة والمرطبات مغشوشة والحلويات مغشوشة والالوان المطبوخة مغشوشة . وارباب المدارك من المستهلكين يعلمون هذا ولا يستنكرونه لأنهم هم أيضاً مشاغيل بغشهم ومنهم لصوص في ثياب تجار أو زراع أو صناع .

كان اكثر العامة منذ نحو خمسين سنة يبتعدون عن الغش في الوزن والكيل وعن غش المائعات والسائلات وما كان الفلاح يجوز لنفسه غش اللبن غالباً لأنه كان يعتقد ان الله تعالى يجازيه على فعلته بهلاك بقرته او عنزته او نعجته ، وما كان يجب أن يخسر الكيل والميزان لأن الله له بالمرصاد يعاقبه في الدنيا قبل الآخرة فيفجعه بأولاده ، ويرزؤه بصحته او دابته ، ويسلط الاقوياء عليه ينهبونه ويسرقون ما ادخر من مال ومؤنة ، او يسلط عليه آفة تأتي على الأخضر واليابس مما جمع . كان هذا الاعتقاد نافعاً جداً في دفع الأذى يساعد المحتسب على القيام بانفاذ قانونه على الناس في يسر وسهولة ، والمحتسب بمثابة رئيس البلدية ومدير الشرطة والصحة اليوم . اما لعهدنا هذا فقد تفلسف بعض العامة بل ألحدوا وتزندقوا فظلوا مسلمين يصلون ويصومون ولكنهم يسرقون ويفحشون في سرقاتهم . وهذا مما ينذر بسوء المصير .

انا كلما زدت معرفة بهذه الطبقات يسوء ظني بالمستقبل واعزي نفسي بأن الأخلاق قد تتردى في عهد الحروب والغوائل ولا بد أن تتحسن متى انجلت الغمرة وزالت الشدة ، ولطالما تمنيت لو قاسمني السارق برضاي ما يريد ان يسرقه مني في سر ، وكثيراً ما قلت لهؤلاء الفلاحين وغيرهم اذا طمعت أنفسكم في أخذ شيء من اشيائي قولوا لي وانا أنزل لكم عن بعضه برضاي فتأخذونه حلالاً طيباً ولا تطمعوا في أخذ شيء بدون علمي فأنا لا أريد ان استرقع واستحمق . ولطالما قلت لبعض أرباب الصناعات خذوا اجرة حسنة على ان تعاهدوني الا تسرقوا شيئاً في غيابي ، ولكن نفوس أهل هذه الطبقة زُين لها الربح من أي طريق أتى . ولكم كنت اعطي العامل واكرمه وكلما زدت في إكرامه استضعفني وغلا في نهبي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا ألوم من لا تدرك عقولهم الا المنفعة المعجلة وعقولهم في عيونهم كما يقال ، وقد تجردوا من الفضائل الكسبية والفطرية ، بقدر ما ألوم من يجيئون في طبقة أرقى من طبقتهم وهم مناط الرجاء في الهيمنة عليهم .

رأيت هؤلاء الغشاشين باعة وتجاراً يجمعون اموالاً ويبنون حوانيت وبيوتاً ويقتنون مزارع وحدائق ثم يبدد كل ما جمعوه بأدنى عارض فكنت احمد الله على ذهاب اموال جمعت بالسحت وبالغش وأجد ذلك عقوبة عادلة لهم . رأيت ثروات من احتكروا أصنافاً من القوت في الحرب الماضية تتمزق شر ممزق ، وكذلك سيكون مصير أموال من تجردت نفوسهم من كل شفقة واحتكروا في هذه الحرب تلك الأصناف ولكن الناس لا يعتبرون .

والآن ماذا يجب ان يعمل لإصلاح هذا الفساد المستشرى او تخفيف وبلاته على الأقل ، هنالك ثلاثة عوامل تفيد في تقليم اظافر الفاسدين وتعيد الى المجتمع صفوه الذي كان له في الدهر السالف . العامل الأول تطبيق القانون على من يعيشون بحقوق الخلق بدون مسامحة ولا هوادة فان قوانيننا الشرعية والوضعية كفيلة بالسعادة ، لو جرى تطبيقها على ما يجب ما احتجنا بعدها الى وازع آخر . الا أن المسألة تتوقف على انفاذ تلك القوانين ، والقوانين تغني غناءها بالتطبيق لا بجمال مادتها وانسجام عبارتها . وفي بعض الآثار : يزع السلطان اكثر مما يزع القرآن (أي ان من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان اكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى) ولا بد من تضييق خناق المسيطرين على القوانين في ارشاد العامة الى الجادة وأن يطرد المتساهل من عمله ولو كان بعد من الرؤساء فالسمكة تنتن من رأسها كما يقول الأتراك في امثالهم ، والتفتيش يجب ان يتناول الكبار قبل الصغار ، فبأيديهم تسير مصالح الناس سيراً حسناً او تتلوى وتزيغ .

والعامل الثاني الخطباء والوعاظ فهؤلاء من واجبهم ابداً ان يبينوا للفاسدين مغبة عملهم على انفسهم وعلى الجماعة ، يقولون ما يقولون لهم عن عقيدة لا كلاماً لا يتعدى أطراف الشفاه ، يختلطون بالناس ويتنوعون الأساليب لمن يهم المجتمع ارجاعهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى الطريق السوي ، ويخاطبونهم باللغة التي يفهمونها ، ويدلونهم من طريق العقل والنقل الى كل مافيه صلاح نفوسهم والبعد بها عن الكذب والخديعة .

والعامل الثالث وهو الاهم قيام الامة على اختلاف طبقاتها بهداية الضالين وتذكيرهم بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم ومقاطعتهم اذا سرقوا وكذبوا وان يبينوا لهم السبب الذي من اجله قاطعوهم ، وعلى الصالحين ان يعتقدوا انهم بعملهم هذا يقومون بواجب مقدس ، واذا هم رحموا حيث لا تحل الرحمة تضيع حقوقهم وحقوق غيرهم ، وعليهم أن يعتقدوا ان واجب كل انسان ان يعتقد اعتقاداً جازماً انه هو القانون وهو الحكومة ، وانه متى تهاون فيما يرى ويسمع من منكر ولم يتقدم لاصلاحه يعد خائناً لأمته وخائناً لنفسه ، فان الفرد في معظم الأمم الراقية في الغرب يعاون الحكومة في مهمتها ويعتقد انه اذا لم يهيمن بنفسه على من يخرق قوانين بلاده يعد شريك الجاني والمجرم .

وهذا العامل الثالث من أشد العوامل الناجعة في هداية الزائغين من العامة ، خصوصاً اذا أوهم الخواص العوام انهم ليسوا أرقى منهم كثيراً ، وان بينهما درجة اذا صعدوها ماثلوهم في المجتمع وكانوا موضع الرعاية والحرمة . ولا يؤلم العامة اكثر من احتقارهم . ومن هنا جاء حسد الفقراء للأغنياء ، واعراض الجهلاء عن العلماء ، وغيرة الضعفاء من الأقوياء .

اذا اجتمعت هذه العوامل الثلاثة وعملت باخلاص وجد يصلح الجزء الاعظم من الأمة وباصلاحه ندخل في طور جديد ونحمد غب القوانين المرعية ، واذا بقيت كما هي اليوم عادت كعلم جابر اقرأ تفرح جرب تحزن . ومن كان صلاحه بيده وهو يهمله لا يبالي فأنذره بمصير من يعلمون ولا يعملون . اهـ

ولما انتهى من المحاضرة خرج واعضاء المجمع العلمي العربي مودعين فخامته ودولة رئيس الوزراء وصاحبي المعالي وزير المعارف والعدلية متمنين ان تحقق همة فخامة الرئيس وسعي هيئة الحكومة ذلك الوعد الكريم ، وفقهم الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net